

كتاب الشهر

"عرب" اللبنانية تعيد الاعتبار إلى الفنان المنسيّ صالح عبد الحيّ.. فارس الطرب

"صالح عبد الحي: فارس الطرب"، عنوان كتاب مرجعي صدر اخيرا في بيروت بتوقيع محب جميل. يقدم لنا هذا الناقد والباحث المعروف احد ابرز الوجوه الغنائية التي ساهمت في الحفاظ على تراث النهضة الموسيقية العربية في القرن التاسع عشر

ليس كتاب "صالح عبد الحي: فارس الطرب" (جمعية "عرب" - بيروت) مجرد سيرة عن احد اسياذ التطريب والارتجال في تاريخ الموسيقى العربية. بل ان الكاتب والصحافي المصري محب جميل يقدم عبر سيرة صاحب اغنية "ليه يا بنفسج" بانوراما عن الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية والفنية وشكل الافراح الشعبية وعلية القوم في مصر منذ الحرب العالمية الاولى وصولا الى الستينات. كل ذلك من خلال تتبع ذلك الصوت الذي كان "الطريق الوحيدة الى تراث النهضة الموسيقية في موشحاتها ومواويلها وادوارها، والضمان السليم لتزويد اسماعنا الشجية، خصوصا على آلة القانون التي تسبق "تسلطن الليالي والعيون" تمهيدا للاستقرار في احوال الطرب"، على حد تعبير الناقد الموسيقي اسعد مخلول في مقدمة الكتاب.

صالح عبد الحي (1896 - 1962) ظل، حتى رحيله الحزين، الحارس الامين للاحان عبد الرحيم المسلوب، وعبد الحمادي، ومحمد عثمان، وابو العلا محمد وغيرهم من اساطين التلحين والغناء. مثل الصلة الاخيرة بين نهضتين موسيقيتين: الاولى تصدرها عبده الحمادي ومحمد عثمان وغيرهما، والثانية هي زمن ام كلثوم ومحمد عبد الوهاب ورياض السنباطي. اذ يعتبر عبد الحي احد ابرز الوجوه الغنائية التي حافظت على الارث التقليدي لمدرسة النهضة الغنائية، خصوصا خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر في القاهرة. فمع انتشار الاسطوانات، راح يسجل بصوته العديد من الاعمال الخاصة برواد تلك المرحلة.

يبدأ محب جميل كتابه المقسم الى ثمانية فصول الحديث عن المناخ السياسي والاجتماعي والفني الذي سبق ولادة صالح

عبد الحي ومهد له. اذ من المهم معرفة ان رغبة الحكام لعبت دورا كبيرا في رعاية الموسيقيين ودعمهم في ذلك الزمن. اشتهر الخديوي اسماعيل بحبه للموسيقى، ويحكى انه كان "يدفع 15 جنيها مصرية كمنحة شهرية للمطرب عبده الحمادي (1814 - 1901)، و10 جنيهات للمطربة المط (1860 - 1896)"، وافتتح دار الاوبرا المصرية عام 1896. الا ان المفترق الحاسم في مسيرة الفن المصري تمثل في ظهور المسرح كاحد اشكال التعبير الفني في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، فاثري الحالة الابداعية. مع الوقت، اخذ بالنمو والازدهار وانخرطت فيه نخبة من كبار موسيقيي ذلك الزمن من امثال كامل الخلعي (1881 - 1931)، وسيد درويش (1870 - 1923)، وداود حسني (1870 - 1937)، وزكريا احمد (1896 - 1961).

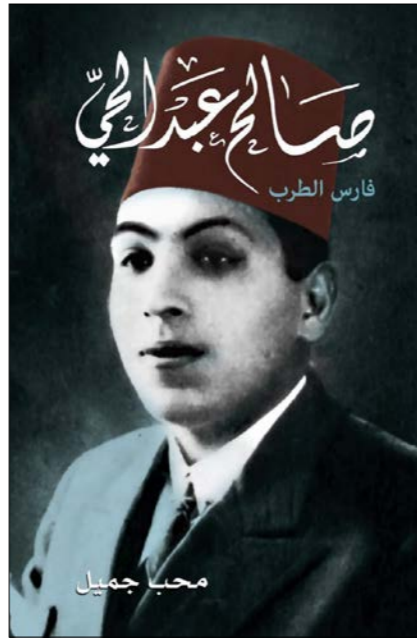
في هذا المناخ المحمل بالوعود، ولد صالح عبد الحي في حارة درب الحلواني في منطقة السيدة زينب في القاهرة. لم تكن طفولته سعيدة، اذ توفي والده قبل ان يبصر هو النور، فيما تكفل باعالة العائلة خاله المطرب الكبير عبد الحي حلمي (1860 - 1913) الذي تخطت شهرته مصر الى بلاد الشام. وقد وصفه المؤرخ قسطندي رزق في كتابه "الموسيقى الشرقية والغناء العربي" بأنه "صاحب صوت كبير وعال". هذا الخال الذي اخذ صالح عبد الحي كنيته، كان ذا تأثير بالغ في ذائقة الفتى الموسيقية كما في تشكل وعيه الفني. سريعا، سيرهن هذا الطفل عن مقدرة كبيرة على التعلم وحفظ القرآن، فيما سيحفظ من خاله مختلف ضروب الادوار والموشحات والمواويل.

الجرح الاول في حياة صالح يتمثل في وفاة خاله. اذ سينتقل الى بيت خاله الاكبر عبد الوهاب حلمي الذي مارس عليه مختلف

المسرح الغنائي، فانضم الى فرقة "سلطانة الطرب" منيرة المهديّة (1885 - 1965) التي قدم معها رواية "توسكا" في احد مسارح اشهر شارع في القاهرة ذلك الزمن، هو شارع عماد الدين عام 1929. كان هذا العمل من توقيع الموسيقار كامل الخلعي واخراج عبد العزيز خليل. بعدما استقل وشكل فرقته الخاصة، جاء الكساد الكبير في الولايات المتحدة (بين عامي 1929 و1933) لتمتد تبعاته الاقتصادية الى العالم كله، فانتشرت البطالة، وزاد الفقر والجريمة. ما دفع عبد الحي الى حل فرقته والتفرغ لوصلاته في الاذاعة الحكومية.

في الواقع، لعبت الاخيرة دورا في دعم الفن والطرب منذ انطلاقتها في 31 ايار 1934. وكان صالح عبد الحي في طليعة المنضمين اليها، حيث قسم الموسيقيون والمطربون فيها الى صف اول يضم نجوم المغنى والطرب، وصف ثان اقل اهمية. طبعا ضم الصف الاول صالح عبد الحي الى جانب ام كلثوم وزكريا احمد ورياض السنباطي. اما الصف الثاني فضم نادرة ونجاة علي وليلى مراد وغيرهن.

كان صالح عبد الحي من اوائل الاصوات التي انطلقت على الهواء، وامتدت وصلاته فيها حتى اواخر الخمسينات. يورد محب جميل انه طوال هذه المدة، لم يغير اسلوبه في الغناء ورفض حمل مشعل التجديد الذي جاء به سيد درويش وواصلته مجموعة من الموسيقيين على رأسهم عبد الوهاب ومحمد القصبجي وزكريا احمد ورياض السنباطي. بل ان عبد الحي اورد في مذكراته انه بدأ يضيق ذرعا بمدير الاذاعة محمد امين حماد لانه طلب منه تقديم الحان حديثة لانها اكثر رواجاً بالنسبة الى المستمعين. في الواقع، كان من اشرس المنتقدين لانصار التجديد في الموسيقى الشرقية. وقد عبر عن هذا الموقف مرارا وعلى الملأ. من ابرز تصريحاته في هذا المجال ما قاله لجريدة "الشعب": "الشرق شرق مهما حاولوا ان يغيروه وسنظل نكتب من اليمين الى اليسار، ونرتل آيات القرآن الكريم بالاسلوب والانغام العربية التي ورثناها مع تحسينها والتطور بها كما فعل المرحوم محمد رفعت (...). ان الجاز وانغامه



غلاف الكتاب.

تمتع بحجرة ثرية
وقدرة مذهلة على
التطريب وجذب الاسماء

عبد الوهاب يطمح الى كل ما هو جديد على الساحة، بينما كان صالح لا يعير اهتماما الا للانماط التقليدية في الغناء التي تنهل من تراث القرن التاسع عشر". ويشبه المؤلف عبد الوهاب "بالبحر الذي يتجدد طوال الوقت بموجاته وتياراته. اما صالح، فقد كان يشبه النهر الذي يجري بعفوية في اتجاه وحيد من المنبع الى المصب". الى جانب صداقته بعبد الوهاب، ارتبط عبد الحي بصداقة مع سيد درويش كان اساسها الود والاخلاص. اذ كان دوما يقدم النصح والارشاد الى سيد درويش الذي اشتهر بالكرم حد الاسراف. وفي عام 1919، ربطته صداقة بام كلثوم التي كانت تقيم في عمارة الجندول في شارع 26 يوليو، ف"انتقلت الشلة للسهر عندها كل مساء حيث كنا نقضي الليل في الطرب وحديث الغناء" وفق ما يورد عبد الحي في مذكراته. تلك هي الصداقات الاساسية في حياة فناننا الذي ظل عازبا طوال حياته، رغم قصص الحب الغريبة التي جمعتة بالنساء.

في النهاية، لم يصمد طويلا في مواجهة رياح التغيير والتجديد مع تبدل الذائقة الفنية والموسيقية والتحولت التي طالت المجتمع المصري. بحلول عام 1957، انقطع عن الغناء في الاذاعة، وصار حبيس منزله في منطقة حدائق القبة. انزوى في منزله البسيط، بعيدا من الاضواء "يستقبل ضيوفه بالجلباب الابيض ونظارة وصحون من الترمس واقذاح من القهوة"، وصار اشبه بموضة قديمة انفض عنها الناس. ومع الوقت ازدادت الامراض التي عانى منها والعمليات التي خضع لها الى ان فارق الحياة في 3 ايار 1962. المؤسف - كما يورد الكاتب - ان جنازته كانت بسيطة لم يمش فيها فنان واحد! فقد شيعه الى مثواه اقل من ستين شخصا من بينهم مندوب عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. بل انه حتى اليوم، لا تبث الاذاعة المصرية ايا من اعماله، كأنه لم يكن حارس التراث المصري، ولا اغنى الطرب بصوته واسهاماته. وها هو كتاب محب جميل كأننا به يرد بعضا من الجميل الذي قدمه صالح، هو الذي كان صوته "مرآة لعصره وجيله من المطربين الذين اثروا الساحة الفنية بالعديد من الاعمال الخالدة".